

الديمقراطية والانتخاب

في التريز

للأستاذ فخري أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية في نظم الحكم الحديثة ، إذ اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة في الفرصة التي تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم ؛ ففي نصف القرن الأخير جُعِلت مرحلة التعليم الأولى في دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية ، لينال كل فرد حظاً من التعليم ، وعاونت الحكومات ذوى المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضي إلى غايات التعليم دون أن يكون قهرهم حائلاً لهم عن ذلك ، وبهذا انتشر النور وأطلقت المواهب التي كانت من قبل مقبولة

على أن التعليم العام لم يَحُلْ انتشاره من مساوئ : من ذاك أن معظم أبناء الطبقة السفلى ينادرون المدرسة توا عقب إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويمودون إلى ضراوة مهين آبائهم وينسون ما تعلموه في المدارس إلا النزر اليسير الذي لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص ؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطنى على الأدب العالى ، وتذلت الصحف ، وكثرت الكتب المرتقون الذين لا يتوخون سوى إرضاء تلك العقلية النحطة ، وقد آذى هذا الأدب المنحط الثقافة الرفيعة : إذ اجتذب غير قليلين من المتعلمين تملأ راقياً ، لأن من طبيعة الانسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها ، إلا أن يكون له وازع من نفسه شديد يَفسره على التسامى عن الفضول ؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أسيء استعمالها كما أسيء استعمال الكتابة لإرضاء لفضول أشباه المتعلمين ، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثاهما

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله في بلاد الغرب التي سبقتنا إليه فهل هو كذلك في مصر ؟ لقد أخذنا

الكالين أشفقوا على الصليين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يقدوم برواد التاحف لا ينالون أن يسقط عليهم التحف أولاً يسقط ؟ هل بلغ الولوج بالآثار القديمة عندهم أن يمحووا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان ؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يحملها من الفنون الجميلة ، ومضت عليها عصور نجمها من الآثار القديمة

لست أرى فيما صنمه الكالينون بآيا صوفيا إلا إنقاذاً للمناهج الذي وضعوه . فهذا جامع كان كنيسة معظمة عند النصارى ، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجعلوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها ، وبنوا لها منارتين ، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم : « لتفتحن القسطنطينية ! ولنم الجيش جيشها ، ونعم الأمير أميرها ! » ولا يزال التركي كلما مر بهذا الجامع ذكر الفتح والفتح ، وغلبة الاسلام في هذه المدينة ونحو هذا مما لا يلائم « النهضة التركية الأخيرة » ولا يسار المدنية الحديثة ، ثم لا يزال هذا الجامع حسرة في نفوس النصارى ، ما نسوه قط ، وقد أعربوا عن أملهم في تحويله إلى كنيسة يوم احتل الحلفاء الآستانة في الحرب الكبرى فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى . فكان لزاماً أن يمحو الكالينون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين ، لينسوا الماضي وينظروا إلى الحاضر . ولينقبروا إلى أوروبا النصرانية التي التزموا بما كاتها في كل شيء . وما بالكم أيها المسلمون تكرر هون هذا التسامح في الدين وأنتم تزعمون أن دينكم دين التسامح ؟ ستقولون إن أوروبا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزبها تسامحاً بتسامح ، ولا يزال كثير من مساجدنا في الأندلس والبلقان كنائس في أيدي النصرانية . وقائكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لا نبذلهم به !!!

وقد بلغني أخيراً أن الحكومة التركية هدمت المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية في هيبه لى أطله ، هذا المسجد الذي كان يشرف على بحر مرمرية بوحى إلى المسلم أن دينه يبنى أن يبر في البر والبحر ، فإن صدق هذا الخبر ، ولست على يقين منه ، فهو حلقة من هذه السلسلة

عبد الوهاب عزازم

(له بقية)

وأشهر الشعوب بالديمقراطية في العصر الحديث الانجليز ، ولكن من يتأمل في حياتهم يرى أن ديمقراطيتهم أرستقراطية كديمقراطية أثينا : فالقوارق بين طبقتي النبلاء والأوساط والسوقة قائمة بعدة يشمر بها أفراد كل طبقة ، والنبلاء يترفون على من عداهم ترفاً شديداً ، والآخرون ينظرون إليهم نظرة رهبة وإكبار ، حتى لشكاد تكون طبقة النبلاء هذه أمة داخل أمة ؛ وهذا الشعور باختلاف الطبقات والتسليم به والاعتراف بالأمر الواقع دليل على نزعة الانجليز العملية ، وهو هو سر صلابة بنيان نظامهم الاجتماعي والحكومي ، وخلو تاريخهم من زعازع التقلبات وهو أيضاً أكبر أسرار نجاح نظم التربية عندهم : فالنظام الارستقراطي يتمثل في المدرسة الانجليزية كما يتمثل في المجتمع الانجليزي : فالتعليم عام مباح للجميع ، ولكن هناك مدارس للخاصة قاصرة على أبناء من يابون لأبنائهم مخالطة أبناء السوقة ، ومعظم أبناء الطبقة السفلى ينقطعون عن المدرسة بمجرد انتهاء المرحلة الاجبارية وينزلون إلى ميدان الحياة العملية ، ونظم المدارس من الشدة والدقة وجوها من النقاء بحيث لا يسمح بالاستمرار في مراحل التعليم إلا لمن حسنت أخلاقهم ونضجت مداركهم ، والحكومة ومجالس الأقاليم والجماعات الخيرية لا تنفق أموالها إلا على التابئين المتفوقين ، وهكذا يبدأ التعليم في أول مراحل ديمقراطياً عاماً ثم تتناوله يد الانتخاب بالتهذيب والتنقية فلا يبلغ القمة إلا الأكفاء خُلُقاً وموهبة ، ولا يصل إلى مراتب الادارة والحكم وقيادة مصالح البلاد وتوجيه مصارها إلا صفوة أبنائها ، ويظل الأوساط في أسفل

أما في مصر فأننا لطول لهُفتنا إلى الديمقراطية والعلم - بمد أن عصف بنا الاستبداد والجهل أجيالاً - اندفعنا إلى مبدأ التعليم العام اندفاعاً ، وأخذنا مبدأ الديمقراطية وحده ، وهو مبدأ كما تقدم غير طبيعي مالم يُمارسه جنباً لجنب مبدأ الانتخاب ، ومالم يُراعَ معه قيام القوارق بين الطبقات ، فأدى هذا الاندفاع إلى هبوط مستوى التعليم هبوطاً ذريعاً : فكثرت عدد المعلمين ولكن قلَّت قيمة الواحد منهم بما يحمله من علم وخلق ، والجانب الخلق هو الذي يعني هنا أكثر من غيره ، وقصارى

مبدأ التعليم العام فيما أخذنا من أمم الغرب ، وقلنا : مادامنا نطلب الديمقراطية في السياسة والحكم فلا بد من اتباعها في التعليم ، وما دما نريد الهوض ببلادنا فلننشر فيها العلم لتنقيتها من خرافات الجهل وجموده ، وأنغرّقنا وتسرعنا في تطبيق ذلك للبداً شأننا في كل ما ننقل عن الغربيين : فأنشأنا عشرات المدارس وزججنا فيها الناشئين من كل صوب ، وأنفقنا على ذلك الأموال الطائلة ، وتخرج في معاهدنا ألوف الشبان ، فإذا كانت النتيجة ؟ النتيجة فشل لم يكن في الحسبان : فأولئك الشبان يزيدون على حاجة البلاد ، وتعليمهم ناقص مشوه ، وأخلاقهم لا تحمد ، والتعليم عامة يتقدم في طريق الضعف والانحلال سنة بعد سنة باطراد

ذلك بأننا أخذنا مبدأ الديمقراطية في التربية مطلقاً غير محدود ، وهو مبدأ غير طبيعي ولا يصلح به وحده مجتمع ولا نظام ، وإنما الببدأ الساري في الطبيعة هو مبدأ الانتخاب : فالأصلح في الطبيعة هو الذي يرق ويسود ؛ وقد فطن إلى ذلك أول الشعوب أخذاً بالديمقراطية في حياتهم الاجتماعية ونظمهم الحكومية ، وهم اليونان : فديمقراطية أثينا لم تكن في الواقع إلا أرستقراطية إذا تذكرنا أنه كانت بها دأماً طبقتان ممتازتان غير متساويتين في الحقوق والواجبات : طبقة الأحرار وطبقة العبيد . ولما بحث فلاسفة اليونان السكبار في النظم الحكومية لم يُؤثِرْ واحد منهم الديمقراطية المطلقة ، ومالوا إلى الأرستقراطية لأنها هي النظام الطبيعي ؛ وحين طلع أفلاطون التربية وضع لها نظماً أرستقراطياً قائماً على مبدأ انتخاب الأصلح ، لديمقراطياً على مبدأ المساواة التامة : فجعل التعليم على ثلاث مراحل يتبعها الجميع بالأولى منها ولا يرتقى إلى الثانية والثالثة إلا من أظهر واستعداداً طبيعياً لذلك ، ومن المرحلة الأولى يتخرج أرباب المهن اليدوية ، ومن الثانية يتخرج المقاتلون ، ومن الأخيرة الفلاسفة والحكام

فالتبيعة لم تجعل أبنائها متساوين في المواهب ، بل هي ترفع بعضهم فوق بعض درجات ، ومادام هذا كذلك فسيظل في كل مجتمع في كل عصر طبقات متفاوتة ، ولن ترق أمة إلا أن تعترف ضمناً بالتفاوت بين هذه الطبقات ، والفلة عن هذا التفاوت خطأ قاتل

نعكس لهذا الطغيان بأيدينا في مدارسنا في الأمة سوقة وفيها أسرات طيبة ، ونحن الذين نريد الرق يبلادنا بنى الخير للجميع بلا نزاع ، ولكن هذا المزج بين الفريقين بدعوى الديمقراطية لا يؤدي إلى غرضنا المنشود ، هو يهبط بأخلاق الملية ولا يرفع السفلة ، كالذى يمزج قليلاً من الماء النقي بكثير من الماء العكر لن يحصل إلا على ماء عكر ، والأجدر بنا ألا نتعجل الأمر فنحاول ترقية الأمة جميعاً وتعليمها وتهذيبها دفعة واحدة

إن الأجدر بنا أن نصرف عنايتنا أول الأمر إلى أبناء الطبقة المهذبة فنقدم بالتعليم الذى ينشرونه وهم بمنأى عن مخالطة السوق والتطبع بطباعهم ، فهؤلاء صفوة أبناء الأمة ، ومتى خُلصَ لنا تعليمهم وتهذيبهم فقد أهدينا إلى البلاد طبقة من أبنائها الأكفأ ذوى الخلق العظيم القادرين على تدير أمورهم وقيادة نواحي النشاط العام في حياتهم ، ولنا أن نلتفت بعد ذلك — أومع ذلك — إلى أبناء السوق ، فنفسح لهم في مجال التعليم والتربية بما يؤدي إلى ترقية أخلاقهم ورفع مستواهم ، ولكن على أن يظلوا بنحوة لا يبتون السموم في بيئة أرفع من بيتهم ، وإن رفع مستواهم لأمر يحتاج إلى أجيال ، كما أنهم لما هبطوا إلى دركهم ذاك في أجيال ، فحذر بنا أن نبتدئ التسرع جانباً

من ثم نرى ضرورة إنشاء مدارس منفصلة لأبناء الطبقة المهذبة والأسرات الطيبة كما أشرت إليه في كلمة سابقة ، يُقبل بها التلاميذ على أساس الانتخاب الخلق والعقل لا على أساس الديمقراطية العمياء ، فما لا نزاع فيه أن بالبلاد أسرات طيبة ينشأ أبنائها في بيوتهم نشأة طيبة ، فلنتنخب أبناء هذه الطبقات — بخير الطرق المستطاعة — ولنفرد لهم مدارس تخدم بالثقافة ولا تفسد أخلاقهم بمخالطة الدون

ولا شك أن اليسر المالى من دواحي رقى الأسرة ورقى المجتمع كله . فالأسرة التى تشمر باليسر وترى امتيازها المالى على غيرها تسمى ليكون لها امتياز خلقى أيضاً ، فتتزعج إلى الحياة المنظمة النظيفة وتتسامى عن الشرور وعن السفاسف ، وتسود فيها رقة الحاشية وسلامة الذوق ، والأخلاق الطيبة تبدأ تطبعاً وتستحيل

ما يقال في أخلاق أبناء مدارسنا وخريجياتها أن النفس تمتلئ بأسى وبأساً من مستقبل قضية الوطن العزيزة حين تذكر أن هؤلاء هم ذخر البلاد لنداءها ، وما جنى على أخلاق متعلمينا هذه الجناية إلا حشدُ التلاميذ في المدارس من جميع الطبقات بلا تمييز

في كل أمة في العالم طبقة سفلى ، فلا ضير علينا في الاعتراف بوجود هذه الطبقة بيننا ، بل يجب علينا ونحن نلتمس موضع الداء ونحاول إصلاح عيوب التربية أن نذكر أن الطبقة الدنيا في بلادنا كبيرة العدد كبراً يفوق ما بالبلاد الراقية ، وأن أخلاق تلك الطبقة في متعنى الضمة ، لأنها ما تزال تحمل بين أطوائها آثار موروثة الاستبداد والجهل التى أوهنت الأخلاق وبثت الكذب والنفاق والنفس والخيانة والخشونة والوقاحة ، وما يزال أبناء الطبقة الوضيعة عندنا متسببين بهذه الصفات ، وهم لا يرون بها بأساً ولا يمدونها إلا لإمارات مهارة وحنكة ووسائل احتيال للعيش وانهاز للفرص

ومن سوء حظ التعليم في مصر أن أبناء تلك الطبقة أقبلوا على التعليم في السنين الأخيرة إقبالاً شديداً ، لا لقدروهم العلم قدره ومعرفهم بفضل الخلق الكريم العالى ، بل طمعا من الآباء أن يروا أبناءهم يرفلون في أزياء الأفندية والبكوات ، ويترشحون لمالئ المناصب والمراتب ، فوجد أبناء السائقين والأسكافين والخدم والبوابين ومن إليهم أبواب المدارس مفتحة لهم على مصارعها فجلسوا على أرائكها بجانب أبناء الأسر الطيبة الذين نشئوا في بيوتهم على حسن الذوق ولطف الخطاب وطهارة الطوية ، فبثوا في جو المدرسة خشونة طباعهم ، وجلافة خطابهم ، وسفالة أفكارهم ، وضعة نفوسهم ، ولم تكن إلا سنون حتى نسم جو كل مدارسنا ، وصارت تطبع كل من أمها من التلاميذ — سوقهم وراقبهم — على غرار واحد لا يتصف بصفة حميدة واحدة

والذى أراه أن مدارسنا لن تقال من كبوتها ، وأخلاقنا لن ترفع من حطها ، حتى يصعد هذا الذى يحق أن نسميه « غارة السوق على المدارس » ، ويفصل بين أبناء الشوق وأبناء الأسرات الطيبة في معاهد العلم ، وما دام هذا المزج الذى لا تمييز فيه فستظل أخلاق سوقتنا تطنى على أخلاق عليتنا ونحن

إبليس يتوب . . . !

للاستاذ محمد سعيد العريان

« ليس أصبح من الرذيلة تكون وحدها في
الأرض ، إلا الفضيلة تكون وحدها . . . »
الرائي

اطلع إبليس ذات مساء على الأرض ؛ يستروح من نبات
الليل والدنيا نائمة — رَوَّحَ الفردوس الذي طرده الكبرياء
من رحته . وانبت زبانيته ينفثون الشر عن أمسه في أوكار
الظلام ؛ ففي كل منعطف شيطان صغير يترسّص ، ويعين كل
اثنين ثالث لا يرانه . . .

وسمع إبليس في هدأة الليل طابداً يهجد ، ما يبدأ ولا ينتهي
من سجدة إلا لعن الشيطان . . .
وأحسن إبليس لعنات الشيخ العابد تنصب عليه كما ينال
التراب على نار تلهب ، أو ينصب الماء على جمر توج

وصرّت أسنان الشيطان من الفيط ، وانقدح من
حجاجيه شرار كاللب ، أن عجز وهجرت زبانيته معه عن
فتنة مثل هذا الشيخ الزاهد وإرادته على أن يمتلق بمظه من
الدنيا وشهوات النفس ، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه
من الجنة !

أفكان يصمم الشيطان من اللعنات أن يُسلط على الناس
جميعاً شهواتهم ويُغري بهم أنفسهم ؟ فكيف وإن عباده من
أهل القوامة والمصيبة ليدكرونها باللمنة على مقدار ما يُيسر لهم
شهواتهم ويضاعف لهم من مسراتها ؛ وإنهم ليسرّون إلى لعنته
أسراعهم إلى طاعته . . . ؟

وهبت نسمة السحر تُنظر الدنيا بأنفاس الجنة ، فاستروح
منها إبليس روح الماضي يذكره أيامه كلها منذ بدء الخليقة
ويلقى التاريخ بين يديه . وتفتشته الذكرى وعاد الزمان القهقري
أمام عينيه ؛ فإذا هو ملك بين الملائكة يسبحون بحمد ربهم
حاثين من حول العرش ؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربه أياً
مستكبراً أن يسجد لبشر من طين ؛ وإذا هو من بعد مطرود

طبعاً وتبتدىء بالمظهر ثم تأخذ بالجوهر . أما الأسرة السوقية
المدققة فيورثها كفاحها في طلب القوت وضيق الرذائل وقدر
العادات ، ومن ثم يمكن أن يتخذ اليسر المالى مقياساً لرق أسرة
الطالب ومحوها عن أدران السوقية كما تتخذ مهنة والده مقياساً
لذلك أيضاً ، ويجب بعد أن يُقبل الطالب في المدرسة أن تستمر
الرقابة المدرسية الصارمة ، فمن ثبت عدم استحقاقه للبقاء في بيتها
الراقية فصل على الفور ليظل جو المدرسة دائماً نقياً يسمو
بأخلاق أبنائها

كذلك يجب أن تسمو المدارس بالمقول : بأن يُرفع مستوى
الامتحانات التي يتوقف عليها تقدم الطالب في مراحل العلم —
أيا كان نوعها وكيف أدخلت على أنظمتها الإصلاحات — حتى
لا يُسمح باجتياز مراحل التعليم المختلفة إلا لمن هيأهم الطبيعة
بالواهب الصحيحة ، فيُسمح للجميع بطرق مرحلة التعليم
الأولى ، ولكن لا ينال الاجازات العلمية إلا من هم جديرون بها

هكذا يُطبّق مبدأ الانتخاب في التربية بناحيتهما الخلقية
والعقلية ؛ ويأتباع هذا المبدأ ترق أخلاق التلمين ويرتفع مستوى
الحاصلين منهم على الاجازات العلمية ويقل عددهم فلا يزيد على
حاجة البلاد ولا يكونون طبقة عاطلة ، ومن تخلفت به مواهبه
منهم عن إدراك غايات العلم الصحيح يُمَرَج على ما يناسبه من
مهن وأعمال

فبدأ الانتخاب ، مبدأ الاعتراف بالتفاوت بين الأفراد
والطبقات ، مبدأ اختيار الأصلح ، الذي هو المبدأ الطبيعي ، هو
المبدأ الذي به تصلح نظم التربية عندنا وتبرأ من عللها الكثيرة ؛
أما مبدأ الديمقراطية المطلقة ، مبدأ فرض المساواة التامة بين
الجميع في كل شيء ، مبدأ إفساح المجال لكل من هب ودب ،
فهو مبث آفات التعليم ، وهو الذي أدى إلى حشد التلاميذ في
المدارس ذلك الحشد الذي عزا إليه تقرير معالي وزير المعارف
معظم مساوى التعليم في مدارسنا

فغري أبو العور
لقوس بالعباسية الثانوية